مجلة المنتدى فبراير ١٩٨٤ - دولة الإمارات العربية المتحدة

نحو الحفاظ على النمط المعماري الأصيل :

جيمس جويس
غريبًا في مدينة دبلن

بقلم : دكتور حسن فتح الباب

لو أن جيمس جويس بعث حياً وعاد إلى مدينته دبلن في عامه المئوي هذا لما امكنه ان يتعرف - إلا بشق النفس - على الأجزاء الباقية من المدينة التي وقعت فيها احداث روايته المشهورة «يوليسيس». فلقد شق المسؤولون عن التخطيط والتنمية - في السنوات الأخيرة - طرقاً واسعة عبر دبلن القديمة. وانشئت مبان جديدة للمؤسسات الحكومية في معظم الشوارع. وليس ثمة ما ينبىء عن وقف او انحسار موجة ازالة القديم. ويبدو ان العاصمة الايرلندية التي لم يطرأ على مبانيها الجميلة وشرفاتها الانيقة تغيير يذكر طيلة مائة وخمسين عاماً، تتحول الآن الى مدينة حديثة تكاد ان تكون منبتة الصلة بماضيها، بفعل الايدي التي لا ترحم.

فالمنزل الذي كان يقيم فيه «ليوبولو بلوم» بطل يوليسيس كما سجله جويس في تلك الرواية، والذي بني على النمط المعماري لعصر الملك جورج في القرن الثامن عشر، يقف اليوم متداعياً بنوافذه العالية الحجرية، نهب البلى كأنه طلل في شارع ينتظر مصيره الاخير، وعلى مقربة من ميدان مونتجوي الذي عرفناه عند جويس كملمح مميز للحياة في نهاية القرن تتراءى اليوم منشآت حكومية ممتدة على أحد جانبيه، واذا ما اتجهنا جنوباً حيث يقع شارع ستيفن عبر أكبر ساحات دبلن، واجهتنا على جانبه مبان جديدة ايضاً على حين هيىء الجانب الآخر في معظمه لأعمال تشييدية مماثلة.

ان جيمس جويس - المولود في دبلن عام ١٨٨٢ والمتوفي في زيوريخ. سويسرا عام ١٩٤١ قد اتخذ من العاصمة الايرلندية حيث مسقط رأسه «خلفية» لكثير من أعماله الادبية. وغدا التعرف على دبلن - كما صورها في رواياته - واستجلاء سماتها جزءاً من المنهج الذي يسلكه كثير من عشاق ادب الرحلات من الكتاب والقراء الذين يزورون هذه المدينة. وتنتمي اجمل شوارعها ومبانيها الى حقبة تاريخية اتسمت بالتألق والازدهار، واستمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر. ويتمثل الطابع المعماري لذلك العصر في المنازل الضيقة المبنية بالحجر من ثلاثة طوابق او اربعة، والمتراصة صفوفاً حول الساحات، وكان سائداً ايضاً في المدن البريطانيا، ومنها انتشر في اميركا الشمالية، ولايزال قائماً في ايرلندا حتى اليوم. فعلى امتداد أكثر من مائة عام توالى التوسع العمراني في دبلن، باقامة الأبنية الصغيرة بها على نفس النسق التقليدي، بفضل نجاتها - على خلاف كثير من المدن الأوروبية - من اهوال الحرب وما تجلبه من دمار وخراب.

بيد أنه في بداية سنة ١٩٦٠ خطت الجمهورية الايرلندية ذات الطابع الزراعي نحو التوسع الصناعي. وهي تضم الآن اكثر من مائتي مبنى حديث شيدتها السلطات المعنية، على حين لم تكن تتوفر سنة ١٩٦٢ على هذه المباني التي اختيرت مواقعها في القسم الجنوبي من المدينة حول أجمل شوارعها المعروفة عبر التاريخ وفي ذلك يقول «فرانك ماكدونالد» المحرر بصحيفة التايمز الايرلندية، وهو متخصص في التنمية العمرانية ومعروف بانتقاده اللاذع للاتجاه في الوقت الحاضر الى تغيير النمط القديم للبناء: «ان الكثرة الغالبة من هذه البنايات الكبيرة الجديدة تدمر الهيكل الاساسي للمدنية وتقضي على كيانها». ولئن كانت الدوائر المنوط بها الصيانة والحفاظ على البيئة قد ابقت على بضعة مبان قديمة، استجابة لنداءات المعارضين للتغيير، فان القطار قد فاتها وانقضى الأمر، إذ كانت قد ازيلت معظم تلك المباني قبل أن تمتد اليها يد الانقاذ.

ويلقي مكدونالد معظم المسؤولية على عاتق سكان المدينة انفسهم، اذ يقول: «انهم لم يتنبهوا في البداية الى نتائج تلك الظاهرة السيئة او ظنوها من ظواهر التقدم. ولم يستبينوا الا اليوم مغبة هذه الغفلة». كما يوجه هذا الكاتب الايرلندي سهام نقده الحاد الساخر الى المسؤولين عن تنمية الثروة العقارية، والمهندسين، واعضاء الحكومة، قائلاً: «انه لم يصدر من اللاوائح القانونية والقرارات التنظيمية ما يكفي لمراقبة المنشآت الجديدة».

ومما يؤسف له أن المنازل غدت ادنى قيمة من الأرض التي تبنى عليها». ولكن «تشارلز اليجا كيلي» رئيس قسم التهيئة العمرانية للعاصمة الايرلندية يرى أن المخططين والمهندسين ليسوا هم الاعداء الاساسيين لدبلن القديمة. فعوامل الزمن والتعرية (القدم والمناخ والرياح) هي المسؤولة عما حاق بها من بلى. إذ غدت مبانيها عتيقة متهرئة أيلة للسقوط تبدو مثل الثياب الرثة بعد ان عفا عليها الزمن، وسوف تكون هذه المشكلة الكبيرة اكثر حدة خلال المائة سنة القادمة».

ان مكتب تشارلز الذي يقع في احدى العمائر الحديثة يطل على واحدة من أكثر المناطق التي اصابها التغيير في المدينة، ولكنه يبدو سعيداً بهذا المنظر، اذ يرى انه بالمقارنة بين الكثير من المدن البريطانية وبين دبلن، نجدها مازالت احسن حالاً، ومازال خط الأفق منخفضاً نسبياً بعد انشاء البنايات السامقة التي تتكون من سبعة عشر طابقاً. ويجد المعماريون انفسهم ملتزمين بمراعاة التماثل والتناسب بين المباني التي ينشؤونها، تطبيقاً لما تنص عليه لوائح التنظيم الجديدة، بيد أنه

يضيف ائل ذلك انه «نظراً لنمو دبلن بسرعة تفوق اية مدينة اخرى في أوروبا الغربية، فان الحاجة اصبحت ماسة الى شغل مساحات اكثر بالمكاتب الحكومية اللازمة لاغراض التنمية والخدمات المنشودة. وليس في وسعنا الا أن نساير سنة التطور». ويأمل محدثنا المسؤول خيراً من ظاهرة اتجاه الرأي العام في ميدان الفن المعماري الى التوفيق بين الحفاظ على رواء المدينة التقليدي وبين تلبية متطلبات التطور المتزايدة، عن طريق حجب العمارات الحكومية الحديثة خلف واجهات خارجية لها تبنى على النمط القديم. «اني لأعلم أن تلك حيلة مصطنعة. بيد انني اعتقد انك لو تجولت في دبلن دون معرفة سابقة بتاريخها لما فطنت الى الفرق بين ما هي عليه الآن وما كانت عليه بالأمس».

ولكننا نتساءل بدورنا: هل يعرف ليوبولوبلوم بطل جيمس جويس بيته اذا قدر له ان يعود مرة اخرى الى العاصمة الايرلندية؟.

***

هذا هو السؤال الذي ختم به كاتب هذا المقال الذي اخترناه للترجمة من بين المواد التي نشرتها صحيفة «الديلي اميركان yllaD nacirema» في ٨ سبتمبر الماضي بمناسبة احتفال المجتمعات الأدبية بمرور مائة عام على مولد الاديب العالمي جيمس جويس الذي احدث ثورة في عالم الرواية حين ابتدع «المنولوج الداخلي اوتيار الوعي» في نفس الوقت الذي اكتشفت فيه فرجينيا وولف الروائية الانجليزية (١٩٤١/١٨٨٢) هذه الوسيلة الفنية التي شكلت منعطفاً حاسماً في تطور الرواية الحديثة، حتى ليصعب معرفة ايهما الرائد الذي فتح الطريق (من مفارقات القدر أن يتوحد ايضاً في تاريخين المولد والوفاة)، دون ان نسقط من اعتبارنا أنهما يختلفان في كيفية التعامل مع اسلوب الحوار الداخلي. تعد روايته يوليسيس او عوليس كما يترجمها الدكتور طه محمود معلماً بارزاً من معالم الأدب العالمي لا يختلف فيه أحد، لجرأته الفنية في الخروج على اساليب الرواية الكلاسيكية، وفي توظيفه الابداعي الرائع لأسطورة يوليسيس الاغريقية التي جعلها معادلاً موضوعياً لمجتمع عصره وما كان يطفح به من شرور في دوامة الصراع. ومن ثم اعتبر البوت رواية جويس عملاً ادبياً يحدد الانهيار الاخير لنظام اجتماعي عجلت به الحرب العالمية الأولى كما جاء في كتاب جون جروس (جيمس جويس) الذي نقله الى العربية الاستاذ مجاهد عبدالمنعم. غير أن صاحب المقال الذي قدمناه قد استخدم «بلوم» بطل يوليسيس وتخيله عائداً الى مدينته دبلن فاذا هو لا يكاد يتعرف عليها، ليعرض مشكلة حضارية اصبحت من أهم الظواهر في عالم اليوم، وهي طغيان الطابع المعماري الحديث ذي السمه السمعة الاستهلاكية على الجانب الحضاري الأصيل لفن المعمار، وهو الجانب الذي يمثل هوية المدن ويميز بعضها عن بعض، كي لا تتحول الروح الانسانية التي تنبض عبر ابداعها في البناء الى شيء من الاشياء، وينقطع بذلك التواصل الحميم بين ماضي كل شعب وحاضره، فيفتقد الانسان طريقه ويغيم مستقبله.

فالمدن مثل البشر، لكل منها سماته وخصائصه. فهي ليست ارقاماً صماء على لوحة جامدة، ولا هي سطور موجية على صفحة البحر لا تكاد تظهر حتى تمحى الى الابد. وليس معنى الدعوة الى الاصالة أي التميز الذي يضرب بجذوره في اعماق كل شعب من خلال ما ورثه من قيم جمالية متطورة لا منقطعة، وتقاليد في وسائل الابداع تتأثر بغيرها من قيم وتقاليد الشعوب الاخرى وتؤثر فيها، دون ان يفقد كل منها اصالته - ليس معنى هذه الدعوة التنكر لدعوة اخرى هي الأمل المثالي للرواد والمصلحين عبر التاريخ ألا وهي وحدة البشرية، وذلك لأن الوحدة الحقيقية انما تكمن في التعدد او التنوع مثلما تأتلف الباقة من زهور مختلفة، ويتوحد الكون من خلال كائنات غير متجانسة، بل متناقضة في كثير من ظواهرها. والتيار الانساني في حضارته التي بنيت عبر ملايين السنين ليس قطرات متماثلة من الماء، ولكنه عصارة جهود مختلفة لشعوب متعددة، فالاختلاف هو الذي يؤدي الى الاثراء والى التكامل. والعلاقة الجولية - التأثير والتأثر - هي قوام الحقيقة، والحقيقة هي ملاذ البشرية الأول والاخير، وقوانين التوارث والتلاقح تثبت ان نسيج الخلق البشري متنوع الخيوط، وأن الاستمرار لا يقوم من فراغ او انقطاع. فهناك جذر ينمو ساقا واغصاناً وزهوراً وثماراً، أشكالاً متعددة في شجرة واحدة لكل وظيفته. ولكن الثمرة تقوى اذا تم اللقاح بين جنسين من النبات او الحيوان. ولو لم يكن التعدد لما كانت ثنائية الانسان: ذكر وأنثى ولما كانت الحياة.

وليس معنى الدعوة الى الحفاظ على اصالة المدن، بالابقاء على معالمها الحضارية ثم الوقوف في وجه التطور والافادة من مكاسبه. ولكنها تعني وصل الحاضر المتطور بروح الماضي في عملية تشبه التلاقح او اقامة جسر بين شاطئين. ومن ثم كانت حماية التراث العالمي التي تعقد الآن المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة التابعة للأمم المتحدة المؤتمر بعد المؤتمر وتحشد الحملة بعد الحملة للتوعية باهميتها وضرورتها، لا بهدف الدراسة التاريخية المجردة، بل للدلالة على اصالة هذا التراث في تعبيره عن روح الانسان المبدع. فكل خربين اطلال مدينة مندثرة كان يوماً ما في تكوينه او تلوينه خلاصة قدرة انسانية. فهو اصم ولكنه ينطق بأروع ما في الانسان من فكر وفن مما لم يزل عليه من بقايا الحفر او الرسم. فربما كان لبنة في سقف صنع بطريقة يحقق المنفعة والجمال معاً، وفي جدار شرفة مزينة انيقة والحفاظ على المدن او المواقع القديمة مظهر من مظاهر الانتماء الوطني والقومي والانساني جميعاً. والشعور بالانتماء من اهم الدوافع النفسية التي تكفل للمجتمع التماسك والتقدم، وما قامت الحضارات المختلفة إلا على اكتاف عاملين وبعقول مفكرين ووجدان فنانين آمنوا بوطنهم الصغير وبانتماء هذا الوطن الى عالم واحد كبير، دون نزعة وطنية ضيقة (شوفينية) ولا اقليمية متعصبة، بل من خلال نظرة شاملة. فلم يكن ابداعهم لمجد بلدهم وحده وانما لصالح الانسان في كل مكان. ولم يكن دفاع الابطال لتحرير رقعة الأرض والاحياء الذين يقيمون فوقها وحدهم، وانما لتحرير المضطهدين والمستضعفين في العالم اجمع، لأن قضية الحرية لا تتجزأ. وسوف يظل المرء معرضاً للعبودية اذا لم يقف في وجه مضطهد جاره او اخيه، لأن نزعة الجور مثل الحريق يمتد خطره اذا لم يجد من يطفئه. ونظرية «المجال الحيوي» هي مظهر في اغلب الاحيان للنزوع الى التوسع والاغتصاب كما علمنا التاريخ، وما عهد النازية والفاشية ببعيد، بل انه مازال قائماً حتى اليوم بأسماء اخرى لجبابرة، آخرين من اعداء البشرية والذي لا يحافظ على تراثه الذي يمثل شخصيته التاريخية لا يستطيع ان يدافع عن وطنه ولا عن ذاته، المرء لا يدافع عما لا وجود له. واذ يسقط انسان تراثه فقد اسقط شخصيته فاصبحت واصبح عدماً أو في حكم العدم، لأن تردد الانفاس في الصدر ليس دليلاً على الحياة الانسانية بمعناها الجوهري، وانما هو دليل على الوجود العضوي (البيولوجي) وحده مما يشترك فيه الحيوان والنبات مع الانسان. وهذا المعنى الجوهري يتمثل في الحضارة لأنها ثمرة العقل المبدع الذي اختص به الانسان، والحضارة بدورها تتمثل في الشخصية. لذلك كان الدفاع عن الجانب المضيء من التراث دفاعاً عن الحضارة، ومن ثم عن الحياة الحقيقية وعن التقدم المرهون شرط قيامه

بوجودها.

ومن هذا المنطلق كانت قضية الحفاظ على التراث الثقافي في مختلف انواعه ومنها فن المعمار القديم. في حاجة الى توعية لفهم مبرراتها وخطورة شأنها معاً، فهي لا تمس الماضي وانما تمس الحاضر والغد جميعاً، لأن الكل في واحد والواحد في الكل. لذلك ايضاً فان المناداة بالابقاء على الانماط المعمارية التقليدية ليست من قبيل التزمت والرجعية والتقوقع او التعلق بالماضي للهروب من مرارة الواقع، ولا هي للاستمتاع المترف بالبهاء القديم الذي يمثله الماضي وذكرياته، ولكنها تأكيد للشخصية ووصل للفروع بالجذور وقد تنبه الشاعر الجاهلي القديم الى ما يشبه هذا المعنى في قوله:

البيت لا يبتنى إلا له عمد
ولا عماد اذا لم ترس أوتاد

وتزداد أهمية تأكيد الشخصية بحفظ التراث بعد ان كادت الحياة الحديثة تحول الانسان الى آلة من خلال تطبيق اسلوب (الانتاج الكبير) المكون من وحدات متماثلة لتلبية سرعة التطور في ظل الانفجار السكاني وتزايد طلب السلع والخدمات. فأصبح الناس يحشرون في غرف كالأقفاص داخل البنايات الضخمة التي كادت تتحول حتى في بلدان من «عالمنا الثالث الى ناطحات سحاب». هذا (التشييء) هو الذي يدعو المفكرين الآن وعلماء الاجتماع وعلى رأسهم خبراء اليونسكو الدولي الى مناشدة الحكومات الابقاء على التراث المعماري القديم واستلهامه في فن البناء الحديث، استلهاماً لا يكلف اعباء مادية، فهو مجرد لمسات تضفي بهاء على المباني الحديثة، وتميز المدن عن بعضها، من طريق المحافظة على طابعها الذي يجسد روحها. وربما كان البناء وفقاً للنسق التقليدي او فى باغراض السكنى حيث الراحة والتهوية، واقل تكلفة ايضاً، فضلاً عن تنمية الوعي الجمالي، كما اثبت ذلك المهندس المصري العالمي حسن فتحي في المشروعات التي انجزها.

واذا كان «بلوم» الذي بعثه الكاتب الصحافي الاميركي حياً من بطون صفحات يوليوس كما بعث محمد المويلحي عيسى بن هشام بطل بديع الزمان الهمزاني - يشعر بالغربة اليوم في مدينته دبلن التي تنتمي الى عالم الشمال المتقدم، فان غربتنا نحن ابناء عالم الجنوب النامي اشد في مواطننا، وان غربة القاهرة ودمشق وتونس وفاس في احيائها الحديثة لهي اشد ايضاً. ذلك لأن العاصمة الايرلندية واهلها يشكوان فقدها الرداء الكلاسيكي اكثر مما يشكوان اضمحلال شخصيتها في ظل العمران الحديث. اما نحن - مدناً وسكاناً - فاننا نعاني خطر زوال ذاتيتنا، اذ نستورد انماط المعمار الغربي، الذي يحمل معه قيمه المادية الاستهلاكية التي تذوب فيها روح الانسان الخلاقة، وتنبت فروعه عن جذوره، وهو ما اصطلح على التعبير عنه بالاستلاب الثقافي.

ان ضرورة التمسك بالنمط العمراني الخاص بكل مدينة من مدننا - نحن ابناء العالم الثالث عامة والوطن العربي خاصة المهددين بالغزو المعنوي الغربي - تتأتى من كون هذا النمط يحمل اشارات ورموزاً واضحة تدل علينا. فهو نبت تاريخنا وبرهان عراقتنا، اذ تكيف عبر مئات السنين مع البيئة والمحيط، وكان ثمرة تجربة وخبرة انسان هذه البيئة، فعبر بذلك عن هوية الشعب وثقافته وابداعه واصالته في نفس الوقت. أما الانساق، المعمارية الحديثة التي تتمثل في العمارات الجماعية في مدننا فانه يغلب عليها الطابع التجاري، وتقليد انساق غير متوافقة مع انماط معيشة اسرنا، فضلاً عما يسودها من تنافر وافتقاد للذوق الفني وتضاؤل لروح الابداع. فلابد من اضفاء لمسة فنية تاريخية على معمارنا الحديث تجسد شخصيتنا وتميز ثقافتنا. تلك هي القضية، وهي ثقافية في المقام الأول، وليست نظرة «فولكلورية» سائحية لتحقيق «فانتازيا» مترفة خيالية، بل هي جوهر كياننا وواقعنا التاريخي الاجتماعي المتطور عبر تواصل الاجيال وغلبة التقدم على التخلف في معركة الصراع الجدلي بينهما.

وما لم نسارع الى تبني طابعنا المعماري المميز لنا عن الآخرين، فان ظاهرة الاغتراب عن الذات سوف تتعمق وتستفحل في اعماقنا، وسوف ينعكس ذلك بالضرورة على قدراتنا وتوازننا، مما قد يؤدي الى تمزقنا بعد ان ينقطع خيط الاتصال الذي يربطنا بترابنا العريق، فلا يجد بعضنا سبيلاً - وقد فقد شخصيته - الا الارتماء في احضان عالم الشمال الباهر الاضواء، دون ان يملك القدرة على التمييز بين جانبه الثقافي الايجابي، وجانبه السلبي.

ولقد بدأت حملات منظمة اليونسكو العالمية في سبيل انقاذ الآثار تؤتي ثمارها، بما وجدت لدى دول كثيرة من آذان صاغية بعد ان ادركت ما يعود عليها من منافع لا تقتصر على التنمية السياحية ذات العائد من الدخل القومي، وانما تمتد لتشمل الجانب الحضاري التاريخي الذي نتناوله في هذا المقال. ففي مصر العربية تشغل سلطاتها قضية اخلاء الأماكن الاثرية من ساكنيها، بعد ان بينت الاحصاءات الرسمية ان اكثر من ٣٢ الف مواطن يقيمون في هذه الاماكن، ومنها جامع البرقوقي المبني في العصر المملوكي، ومجموعة قلاوون التي تضم مسجد وضريح السلطان قلاوون، وسرايا الباشا، وجامع ومنزل الجوهري الذي يعد نموذجاً للطراز العربي الاصيل. وقد اعلنت وزارة الثقافة في الآونة الاخيرة انه لايمكن اخلاء تلك الاماكن من شاغليها الا بتغيير القوانين او بايجاد مساكن بديلة.

ويقف خلف الجهود المبذولة في هذا الصدد رجال التاريخ والفكر والصحافة وغيرها من وسائل الاعلام. وليس ترميم قلعة محمد علي ومسجده واعادة تنظيم المتحف الاسلامي الا خطوتين على هذا الطريق. فالحفاظ على التراث الحضاري للأمة يغزل خيوط الانتماء في وجدان افرادها، والعكس صحيح بمعنى ان الاحساس بالانتماء الى حضارة ما يدفع الى الحفاظ على هذه الحضارة. ويتمثل هذا التراث في عدة عناصر منها العمارة وهي التي تصنع التمايز والتفرد والهوية، ومما يؤسف له ان يزحف على شخصية القاهرة الاسلامية القبح والاهمال والتخريب بوعي او دون وعي. ويرى الدكتور صالح مصطفى لمعي استاذ العمارة الاسلامية والترميم بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية ان هذا التدهور بدأ في منتصف القرن الماضي عندما ادرنا ظهرنا للتراث المعماري الاسلامي، وتبنينا الطراز الغربي تحت مفهوم التقدم. فنبتت في القاهرة الأمثلة السيئة لعمارة غريبة عن الطابع التاريخي الذي يعبر عن الشخصية المعمارية المصرية الاسلامية. فقطعنا بذلك حلقة من القيم والمعايير الجمالية استمرت حوالي عشرة قرون من بداية الفتح الاسلامي.

ويحذر الدكتور صالح من التصور الساذج بأن الحفاظ على الاثر يكون بتفريغ المنطقة حوله، لأن هذا التفريغ يعزله عن النسيج المحيط به. «فهذه المباني اقيمت لتتعايش مع بعضها البعض بطريق الاتصال المباشر، والارتباط الفراغي، مع الحفاظ على خطوط التواريخ القديمة، واقامة المباني الجديدة بصورة تنسجم وتتعايش مع القديم من خلال التعرف على القيم المعمارية والتفهم الواعي لفلسفة التصميم التي اتبعها المعماري المسلم». والعلاج لهذه المشكلة هو التركيز على ايقاظ الوعي الشعبي للحفاظ على التراث، وعرض كل مشروعات البناء المستجدة على لجنة مشكلة من مهندسين واثريين، لاستنباط عمارة جديدة متصلة بالتراث الاسلامي لتكوين نسيج عمراني متكامل ومنسجم مع القديم، وتحويل اغلب المناطق التاريخية الى مناطق مشاة

لحمايتها من اهتزازات حركة المرور.

وتعمل منظمة التربية والعلوم والثقافة بجامعة الدول العربية على تعميق الوعي التاريخي بتراثنا العربي دعماً لشخصيتنا، وحث الحكومات والهيئات والافراد على صيانة هذا التراث الذي ادرجت اليونسكو الدولية (لجنة التراث العالمي) كثيراً منه في قائمة التراث الانساني، نظراً لما يحفل به الوطن العربي من الكنوز المتمثلة في الاماكن الاثرية والثقافية المهددة بالانهيار. وهكذا شملت هذه القائمة مدينة القدس القديمة وضواحيها (ادرجت في ديسمبر ١٩٨٢)، ومدينة فاس القديمة بالمغرب، وقرطاج القديمة في تونس، ودمشق القديمة، كما شملت آثاراً اخرى هي الاهرامات الثلاثة وتمثال أبي الهول، وفي الجزائر جداريات الكاسباي ووادي مزاب وقلعة بني حماد ومسجد سيدي بو مدين بمدينة تلمسان، وذلك ضمن هذه القائمة التي تتضمن ٥٧ موقعاً اثرياً وتاريخياً عالمياً.

وفي الدراسة التي نشرتها منظمة اليونسكو الدولية في نوفمبر ١٩٨٣ حول هذا الموضوع اشار السيد أحمد مختار امبو مديرها العام الى ان «المجتمع المعاصر يحتوي على جماعة من الناس تتجاهل الماضي والقيم الانسانية، والثقافة الانسانية. ولكنني اعتقد ان الناس بدأوا يدركون احتياجاتهم لهذا التراث الفني والمعماري والثقافي. وبناء على ذلك بدأ ينمو اتجاه جديد للحفاظ على الشخصية الثقافية للانسان واعتبارها انجازاً يجب ان ندافع عنه ونحميه. واليونسكو اذ تدعو الى الحفاظ على هذه الاماكن الاثرية والثقافية والطبيعية، انما تدعو الى تحقيق هدفين، أولهما هو صيانة تلك الآثار لتكون شاهداً على قدرة الانسان الخلاقة ونضاله وآماله ورغبته الأكيدة في التفوق، وسعيه نحو مستقبل افضل. والهدف الثاني هو ان نجعل هذه الاثار في متناول الجميع سواء اولئك الذين يملكونها حيث يجب ان يكتشفوا ابعادها في انفسهم وعلى صفحات تاريخهم، وكيف عبرت عن شخصيتهم، أو اولئك الذين لا يملكونها لأنهم لابد ان يجدوا فيها مجالاً جديدا يبدأ منه احساسهم بعالمية هذا التراث، وملكيته للانسان».

ومن المبادرات التي اتخذتها بعض الدول في هذا الشأن قرار وزير الثقافة البرازيلي في شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ بمنع المواطنين من التعرف في منازلهم القديمة التي تعتبرها الدولة تراثاً تاريخياً، وكان بعضهم قد سارع الى هدم هذه المنازل وبيعها انقاضاً وأرض فضاء بأسعار أعلى من التعويضات التي تعرضها عليهم الحكومة في نظير تخليهم عنها، اما الجهود التي تبذلها جامعة الدول العربية ممثلة في جهازها الثقافي خاصة واجهزتها السياسية عامة، والتي تضطلع بها منظمة التحرير الفلسطينية والهيئات الدولية المعنية بحقوق الانسان، في سبيل انقاذ القدس من الايدي الصهيونية المخربة للتراث العربي، فهي غنية عن الذكر. وهي تكشف عن الصراع التاريخي الحيوي المحتدم بين صاحب الحق وبين شيطان الباطل، حيث يجاهد الأول للحفاظ على الشخصية العربية، ويعمل الثاني على طمسها بل محوها.

ولقد تعددت المؤتمرات العربية التاريخية والثقافية التي عنيت بهذا الموضوع. ومنها المؤتمر السابع لمنظمة المدن العربية الذي عقد في اوائل مايو ١٩٨٣ بالجزائر، اذ اوصت اللجنة القانونية المنبثقة عنه بالحفاظ على هوية المدينة العربية وتراثها. وأوصت اللجنة الفنية بضرورة الحفاظ على اصالة المدينة العربية العريقة، وذلك من طريق ترميمها واصلاحها، وتشجيع العمران على النمط الاسلامي المعبر عن اصالتنا. وهكذا لا تقتصر رسالة المنظمة المشار اليها على رفع مستوى الخدمات والمرافق في المدن العربية، بل تمتد لتشمل الحفاظ على شخصية المدن العربية وتراثها، بالعمل على ان تكون المخططات العمرانية الشاملة لتطويرها منطلقة من واقعها الثقافي والاجتماعي والبيئي والاقتصادي.

واذا كانت مشكلة تداعي اثارنا التاريخية تتعلق بضرورة الحفاظ على شخصيتنا، فان الغرب مهموم هو الاخر بهذه المشكلة وان كان الجانب السياحي يشغل قدراً اكبر من اهتمامه بالنظر الى رسوخ شخصيته التاريخية، فهو يصدر حضارته ولا يستورد مثلنا، ولئن كان يخشى شيئاً فهو ما يطرأ على معالمه القومية القديمة من تلوث ناتج عن الزحف الصناعي، وما يحتاج الوقاية من نفقات مالية كثيرة. ولكنه لا يهمل مشكلة طغيان البناء المعماري الحديث على الطابع العريق كما تبيناها في ايرلندة، وكما نجدها في لندن حيث تعمل الجهات المسؤولة الآن - ادارة الاثار القديمة والمباني التاريخية التابعة لمصلحة البيئة - على حماية التراث الثقافي البريطاني من الانهيار، ومن ذلك التراث «برج ساعة بج بن» أشهر ساعة في العالم، اذ يجرى ترميمها واعادة طلائها بعد ان ساءت حالتها، مثلها في ذلك مثل مبنى البرلمان القديم المعروف باسم قصر وستمنستر، وآلاف اخرى من المباني التاريخية التي تمنح لندن طابعها الخاص.

ولا يختلف الأمر في أوروبا الشرقية عنه في اوروبا الغربية، فمدينة صوفيا عاصمة بلغاريا تمثل نموذجا للمدينة العصرية المتمسكة بجذورها التاريخية. فقد عرفت كيفية تحقق الانسجام والتناسق بين المتناقضات، فتزاوجت فيها الاشكال والمعايير الهندسية والمعمارية لتشكل في النهاية صورة جميلة لمدينة تجمع بين العراقة والحداثة، او التراث والمعاصرة كما اصطلحنا على التعبير عن هذه المعادلة. فحركة التطور التي بدأت تتجسد بمرور السنين الاخيرة في عمران حديث لم تقم على حساب الآثار التاريخية التي يفخر بها البلغاريون، اذ تشكل بالنسبة لهم جانباً كبيراً من الذاكرة التاريخية. وقد عبر عن ذلك احدهم بقوله في الاحتفال الذي اقيم بمناسبة ذكرى مرور الف وثلاثمائة عام على انشاء الدولة البلغارية: «لقد كنا في الماضي ونحن صبية نعتز أيما اعتزاز بهذا (البلاط) الاصفر الذي ترونه هنا وهناك، ونتباهى به، واليوم نستعيد كثيراً من الذكريات كلما وقعت ابصارنا عليه واشار الى الاحجار التي مازالت زاهية الالوان بفضل المحافظة عليها، تمثل الطابع الذي كان يغلب على شوارع اوروبا في القرون الخالية، والذي تعتبر مدينة فلورنسا الايطالية (اثينة أوروبا في العصر الوسيط كما يطلقون عليها) مثالاً نموذجياً لهذا الطابع في شوارعها وبيوتها وسائر مبانيها.

ان التاريخ هو ذاكرة الشعوب. ولا حضارة دون ذاكرة. والشعوب التي انشأت دولاً حديثة مثل الولايات المتحدة الاميركية تعمل جاهدة على صنع تاريخ لها او اصطناعه، لتكون لها شخصية مميزة ولا تصاب بعقدة في مواجهة الشعوب العريقة. لقد شهدت في بعثة دراسية الى تلك الدولة صفاً متطاولاً يضم مئات الافراد الذين قدموا من مختلف الولايات القاصية والدانية امام منزل جورج واشنطن، ينتظر كل منهم دوره في الدخول الى ذلك البيت القديم الذي تحول الى متحف قومي، لالقاء نظرة على محتوياته. ولم تكن هذه المحتويات - كما رأيتها - غير اشياء مألوفة من مخلفات أول رئيس لهذه الدولة (١٧٣٢/١٧٨٩) بعد ان قاد حرب التحرير: غرفة متواضعة للنوم.. ساعة.. متعلقات شخصية اخرى عادية.. ولكنها الرغبة في البحث عن الجذور كما عرفناها في رواية الكاتب الزنجي الأميركي المنحدر من أصل افريقي والتي تحمل هذا الاسم (الجذور)، والنزع الى تجميع شظايا الذاكرة، والتعبير عن الانتماء الى الوطن، والاعتزاز بالشخصية الحضارية:

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الاثار